مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 09، عدد رقم: 04، ديسمبر 2020، صص: 103-118

تاريخ الاستلام (2020/11/10) تاريخ القبول (2020/11/29) تاريخ النشر (2020/12/25)

سؤال الهوية في رواية "جنة الأرض"
لمصطفى الورياغلي بين الانشطاروالبحث عن التوازن

The Question of Identity in the Novel "Paradise of the Earth" by Mustafa Al-Wiryaghli

محمد أحمد أنقار
المركز المغربي للبحث العلمي وتحقيق التراث(المغرب)
Mohamed.anakar@hotmail.com

ملخص:

تنبني الدراسة على إشكال نقدي هو البحث عن تجليات الهوية في رواية "جنة الأرض" للكاتب المغربي مصطفى الورياغلي. يقودنا هذا الإشكال إلى افتراض مفاده أن الهوية في رواية الورياغلي تتخذ صورتين؛ صورة الانشطاروصورة التوازن. وللإجابة عن هذا الافتراض، سنقف عند تمثلات الشخصية الرئيسة لهويتها، ورصد علاقاتها مع شخصيات أخرى، وتفاعلها مع المكان والزمان. والرواية تثير أسئلة متعددة ومتشعبة، ومن تلك الأسئلة نجد سؤال الهوية بما يحمل من دلالات فكرية وفلسفية واجتماعية. ونعلم أن الهوية ترتبط بالذات وبالآخر، وبالفرد وبالجماعة، وبالأمة وبالوطن، وبالمكان وبالزمان، لذلك، فمعالم الهوية تمتاز بالتنوع وبالاختلاف، كما أن روافدها كثيرة؛ ثقافية ودينية وتاريخية وعرقية

المؤلف المرسل: محمد أحمد أنقار، الإيميل: Mohamed.anakar@hotmail.com

واجتماعية وسياسية، فنكون أمام بوتقة من المعارف ومن الأخلاق ومن التطلعات ومن التصورات ومن الإبداعات.

كلمات مفتاحية: الهوية؛ الانشطار؛ التوازن؛ الرواية؛ الذات؛ الآخر.

Abstract:

Abstract: This study is based on a critical problem which is the search for the manifestations of identity in the novel "Paradise of the Earth" by the Moroccan writer Mustafa Al-Wiryaghli. This research problem leads us to the hypothesis that identity in the novel of the wiryaghli takes two forms: the image of fission and the image of balance. With the aim of testing that, we will consider the main character's representations of identity, observing the character's relationships with other personalities, and interaction with space and time. The novel raises multiple and complex questions, and among those questions is the question of identity, with its intellectual, philosophical and social connotations. We know that identity is related to the Self and the Other, to the individual and the group, to the nation and the country, and to the place and time. Therefore, the features of identity are distinguished by diversity and difference and its types are many: cultural, religious, historical, ethnic, social and political type. We are then faced with a melting pot of knowledge, morals, aspirations, perceptions and creativity.

Keywords:

identity, fission, balance, novel, Self, Other .

مقدمة

مما لا شك فيه أن الرواية، من خلال انسجام أحداثها وشخصياتها وأمكنتها وأزمنتها وغيرها من المكونات الأخرى والتقنيات أيضا، تثير أسئلة متعددة ومتشعبة بتعدد حياة الإنسان وتشعبها. لأن «النص الروائي بالذات متداخل الأبعاد، متعدد اللغات والأصوات والمحكيات، متنوع الخطابات والنماذج والأشكال. إنه فضاء أدبي مفتوح، ذو نزوع ديمقراطي في تمظهراته الحية والأصيلة. كما أنه عالم وثيق الارتباط بالحاضر، يستضيفه ويفكك متخيله ويكشف القوى والظاهرات الأخرى الضامرة فيه والمحجوبة في خفاياه: الأمر الذي يغري القارئ بالتورط في المتاه الحكائي، مما قد يبدل حياته الخاصة عبر الإسقاط أو التماهي أو الحلم أو التباعد»[1]. ومن تلك الأسئلة الجوهرية نجد سؤال الهوية بكل دلالاته الفكرية والفلسفية. وترتبط الهوية بالذات وبالآخر، كما نجد أنها شديدة الصلة بالذاكرة الفردية والجماعية، بحيث لا يمكن فصل هوية الفرد عن الجماعة التي ينتمي إليها، بهذا

تمتد الهوية إلى الأمة وإلى الوطن. وتتشكل معالم الهوية وتتحدد بناء على تضافر عناصر كثيرة؛ ثقافية ودينية وتاريخية وعرقية واجتماعية وسياسية، فنكون أمام بوتقة من المعارف ومن الأخلاق ومن التطلعات ومن التصورات ومن الإبداعات.

نسعى في هذه الدراسة إلى البحث عن تجليات الهوية في رواية "جنة الأرض" للكاتب المغربي مصطفى الورياغلي، من خلال استقصاء تمثلات الشخصية الرئيسة لهويتها، ورصد علاقاتها مع شخصيات أخرى، وتفاعلها مع المكان ومع الزمان، دون إسقاط خارجي مسبق لتلك التمثلات، بمعنى التركيز على الأبعاد التخييلية للنص الروائي. وقبل الخوض في هذا الإشكال، سنقف عند مفهوم الهوية وصلته بمفاهيم أخرى من قبيل الذات والآخر والماهية.

1. الهوية والتباس المصطلح

يعد مصطلح الهوية Identité من المفاهيم الأكثر التباسا وغموضا بسبب ارتباطه بمجالات معرفية متعددة؛ اجتماعية ونفسية وفلسفية ودينية وأدبية ولغوية وسياسية وغيرها. يقول باتريك شارودو Patrick Charaudeau ودومينيك منغنو Dominique Maingueneua في معجمهما المشترك: «مفهوم الهوية عسير التحديد، وهو في آن واحد مركزي في أغلب العلوم الإنسانية والاجتماعية، وموضوع تحديدات مختلفة بعضها على جانب من الضبابية»[2]. وفي استعمالهما لهذا المفهوم في تحليل الخطاب يضيفان إليه مفهومين آخرين هما الذات والغيرية، إذ يسمح المفهوم الأول من هذين المفهومين بوضع وجود الكائن المفكر على أن يقول "أنا". ويسمح المفهوم الثاني بأن نقول إنه لا وعي بالنفس دون وعي بوجود الآخر، وإنه بحسب مقدار الفرق بين "النفس" و"الآخر" تتكون الذات[3]. ويقترح شارودو وزميله التمييز بين هويتين؛ الأولى نفسانية اجتماعية تسمى "خارجية"، هي هوية الذات المتواصلة، تتحدد بناء على سمات منها: السن والجنس والوضع، ومشروعيتها في الكلام، وصفاتها الانفعالية. والثانية هوية خِطابية تسمى "داخلية" هي هوية الذات المتلفظة التي يمكن أن توصف بواسطة مقولات كلامية من طريق تناول الكلام، والأدوار التلفظية، وطرق التدخل[4].

يؤكد الكاتب عبد الرحيم جيران أن الهوية لها صلة بالفعل في علاقته بذات تسعى إلى أن تبني ماهيتها، وفق مَنْزَعَيْن: إما بالتطابق مع الموجود، أو بخرقه بحثا عن أفق آخر للكينونة خارج السموت والسُّنَن المهيأة من قبل المجتمع، لكن ينبغي تمثيل الهوية بموجب المنزعين المذكورين انطلاقا من موضعة الغياب في زمان الحضور. ومن ثمة لن يكون تمثيل

الهوية نوعا من الإسقاط الفلسفي، أو الموضوعاتي على النص، بل مستنبطا من التكوين التخييلي له[5].

في حديثه عن مفهوم الهوية أشار المفكر حسن حنفي أن الهوية موضوع فلسفي بالأصالة، عالجه الفلاسفة المثاليون والوجوديون والواقعيون وغيرهم[6]. ويضيف أن مفهوم الهوية يتداخل مع مفهوم الماهية. يقول في هذا الشأن: «فالهوية لغويا أن يكون الشيء هو هو وليس غيره. وهو قائم على التطابق أو الاتساق في المنطق. والماهية أن يكون الشيء "ما هو" بزيادة حرف الصلة "ما" على الضمير المنفصل "هو". والمعنى واحد. قد يجعل البعض الماهية أكثر عمقا من "الهوية". وفي اللغات الأجنبية لكل لفظ منفصل ماهية Essence من اللاتينية Esse وهو فعل الكينونة. ولفظ "هوية" Identité من الضمير Id أي هو»[7].

إلى جانب مفهوم الماهية الذي يتداخل مع مفهوم الهوية، ثمة مفاهيم أخرى لها صلة بالهوية منها على سبيل المثال: الذات والآخر. ولعل مفهومي الذات والآخر من المفاهيم التي أثارت ولا تزال تثير كثيراً من الجدل، لغموضهما والتباسهما، وصعوبة تحديد معانيهما بدقة يمكن الاطمئنان إليها. وقد اقتضى الحال البحث عن دلالتهما وحصر ما تم التوصل إليه ضمن نطاق الإشكال النقدي الذي ننشغل به.

نقصد بالذّات كلّ ما يمكن أن يشكل هوية "الأنا" من أفكار وأفعال وتصورات ومعتقدات وتقاليد ومختلف أنماط السّلوك التي تجعل الأنا أو الفرد ينتمي إلى جماعة ما تميزه عن أفراد آخرين الذين بدورهم ينتمون إلى جماعات أخرى. وتبعاً لذلك، فإن الآخر له أفكاره وتصوراته ومعتقداته؛ أي كلّ ما يمكن أن يشكل هوية له. ومن ثم نفترض أن الذات تختلف عن الآخر. لكن هذا لا يعني أن الاختلاف هو المبدأ الأساس الرابط بينهما، لأنه من المحتمل وجود تقاطع بين الذات والآخر سواء على مستوى بعض الأفكار أو القيم أو الأهداف أو غيرها، لسبب بدهي أن الأشياء التي تجمع الإنسان بأخيه ربما أكثر مما تفرقه، رغم اختلاف العرق والجنس والاعتقاد.

تقتضي عملية مد جسور التواصل بين الذات أو الأنا والآخر ضرورة الخضوع إلى مبادئ التسامح والاعتراف بالتعدد والاختلاف والندية والتكافؤ ونبذ العنف وعدم الإقصاء أو التهميش. كما أن الحوار البناء يستدعي «استمرار التسامح والانفتاح واحترام الخصوصيات والاختلاف والتخفيف من التبشير العقائدي والأدلجة والمصلحية مما يضر كثيرا أو قليلا بوجود الآخر»[8]. إذا، الهوية خاصة بالإنسان وبالمجتمع، وبالفرد وبالجماعة. في

هذا الصدد يؤكد حسن حنفي أن الهوية «موضوع إنساني خالص، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، بين الواقع والمثال، بين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل. هو الذي يشعر بالفصام، وهو الذي تنقلب فيه الهوية إلى اغتراب. الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون على غير ما هو عليه. فالهوية تعبير عن الحرية، الحرية الذاتية. الهوية إمكانية قد توجد وقد لا توجد. إن وجدت فالوجود الذاتي، وإن غابت فالاغتراب»[9].

لهذا يمكن القول إن إشكالات الهوية متشعبة وغير متناهية، كما أن أهميتها تشمل حياة الإنسان كلها دون استثناء، بيد أنها تصبح أكثر أهمية حينما تكون الهوية مهددة بماضيها وبحاضرها وبمستقبلها، في ظل تنامي قيم الإقصاء وانتشار الأفكار الداعية إلى الكراهية. بناء على ذلك، سنحاول البحث في إشكال الهوية باتخاذ رواية "جنة الأرض" للروائي مصطفى الورياغلي متنا للتحليل وللدراسة. وفي هذا الصدد يمكن أن نعرض السؤال الآتي: ما تمثلات الهوية وصورها في رواية "جنة الأرض"؟

2. انشطار الهوية في رواية "جنة الأرض"

تتعدد موضوعات رواية "جنة الأرض"[10] وتتداخل فيها الأحداث وتتشعب على امتداد أحد عشر فصلا، فنلفي على سبيل المثال: الحب والجنس والصداقة والقيم والهجرة والاحتلال والمقاومة والتاريخ والثقافة والسينما وغيرها، إلا أن الخيط الناظم للموضوعات كلها هو موضوع الهوية. فالحب والجنس مثلا، إنما هما وجهان من وجوه الهوية، فقد تم تمثيلهما سرديا في الرواية قصد رصد أبعاد هوية البطل (أحمد) وعلاقته بالأنا وبالآخر. هي هوية غير مستقرة ولا ثابتة، شبيهة بحركات المد والجزر، تتنازعها ثقافات متعددة ومتباينة، لأن سؤال الهوية لا يثار في «شخصية تكتفي بعالمها، وتنكفئ عليه، ففكرة الهوية تنبثق حينما تتخطى الأسوار الثقافية للأنا، وتواجه بالمغايرة الكلية وبالتعدد»[11]. فالفرد مهما تميز وتفرد فهو في تفاعل مستمر مع الآخر سلبا أو إيجابا. وتنسب عبارة شهيرة لأوسكار وايلد Oscar Wilde مفادها أن معظم الناس هم أناس آخرون. وفي تعليقه عن هذه العبارة قال عالم الاقتصاد والفلسفة الهندي أمارتيا صن Amartya Sen: «قد يبدو هذا القول كواحدة من أحاجيه المفرطة الخيال، لولا أن وايلد دافع في هذه الحالة عن رأيه بتقديم حجة مقنعة: "أفكارهم هي آراء أشخاص آخرين، حياتهم محاكاة، وعواطفهم اقتباسات". إننا في الواقع نتأثر إلى درجة مدهشة بالناس الذين نرى أننا نشترك معهم في هوية واحدة»[12].

بدا أحمد، بطل رواية "جنة الأرض"، في صورة انشطار فكري وروحي، مغتربا عن محيطه سواء المغربي أو الغربي، فالآخر بالنسبة إليه ليس فحسب ذلك الأجنبي والأوروبي، بل المحلي أيضا من أبناء جلدته. يقول في هذا المقطع الروائي:

«أتعرف يا وليام لقد صار مثلي مثل ذلك المركب المتهادي وسط البحر، لا أنا من هنا ولا أنا من هناك. أقيم في الحدود الملتبسة بين قارتين وحضارتين؛ أعيش في مدينة واحدة، لكنني كأني أعيش في مدينتين متباينتين، بل متناقضتين. وكل واحدة منهما تتملقني وإن كانت في العمق ترفضني. عندما أكون معك في الجبل الكبير أو في الصومعة أو في مقاهي السوكو تشيكو وحاناته ومراقصه، أكون مستر هامث، صديق وليام وحيد الكونتيسة. أسهر وأتناقش وأشرب مع الجميع، مثل أي إنجليزي أو فرنسي أو إسباني أو إيطالي من أبناء المدينة، لكنني أيضا لست، في العمق، في نظرهم، سوى مسلم أو مورو كما يقول الإسبان. مهما تألقت في مجتمعاتهم، ومهما ارتفعت حظوتي لدى الكونتيسة فلن ينسوا أبدا أني واحد من الأهالي المتخلفين. منذ أيام كنت في فراش تلك الإنجليزية التي حلت بالمدينة منذ سنة ونصف وتدعي الفن والكتابة..»[13].

نفترض أن هذا المقطع السردي هو نواة رواية "جنة الأرض"، فمنه تتفرع باقي الأحداث، وفيه تتفاعل أهم شخصيات الرواية مع بعضها وتتفاعل أيضا مع المكان ومع الزمان. بالنظر إلى السياق النصي للمقطع نجده ضمن الفصل الثالث المعنون ب"صومعة البرج". يسترجع السارد في هذا الفصل علاقته مع صديقه ويليام، ومن خلال ذلك، بإمكان القارئ أن يتعرف على صورة ويليام في طفولته وفي شبابه. يأخذ السارد، أحمد/مستر هامث، زمام الحكي، مثل عهده في جميع فصول الرواية، باستثناء الفصل الأخير، وبين الفينة والأخرى يفسح المجال لبعض الشخصيات لتعبر عن أفكارها وعن مشاعرها. يعري السارد نفسية ويليام ويبدي الوجه الآخر من حياته القصيرة. ويليام الابن الوحيد للكونتيسة المرأة القوية في الجبل الكبير بمدينة طنجة زمن خضوعها للانتداب الدولي، ولرجل الأعمال ذي النفوذ في أسواق المال. عاش طفولته في كنف مكونة من أب قاس وأم عطوف، وهو ما جعله يميل إلى الوحدة وإلى الصمت، تغيرت حياته بتعرفه على السارد، أحمد، الذي بدوره انقلبت حياته رأسا على عقب، تجمعهما صداقة متينة امتدت إلى غاية وفاة ويليام المبكرة.

آثر الكاتب، في اختيار عناوين فصول روايته ربط كل منها باسم مكان ما. وهي على التوالي من الفصل الأول إلى الفصل العاشر: السوق الكبير والجبل الكبير وصومعة البرج وسوق الداخل والقصبة وفيلا هاريس وكافي باريس وباب البحر وباب الطياطرو ودار البارود. تشكل هذه العناوين فهم مفاتيح أحداث الرواية ومضامين فصولها، فكلها مقتبسة من أمكنة واقعية موجودة بمدينة طنجة. ونفترض أن هذا الاختيار يحتكم إلى دواع جمالية وأخرى تداولية. بمعنى أن الرهان الذي يروم الكاتب إيصاله لا يقف عند حدود رصد التاريخ المعاصر لمدينة طنجة أو سرد بعض الوقائع التي حدثت في المدينة إبان خضوعها للانتداب الدولي، بل يمتد أساسا إلى طرح إشكالات إنسانية تستعصي الإجابة عنها أو الحسم فيها، إشكالات يصل صداها إلى وقتنا الراهن، منها؛ سؤال الهوية، وصراع الثقافات، وصورة الذات عند الآخر، ومبدأ التعايش، وقبول الاختلاف.

حدثت وقائع الفصل الثالث في المكان الأثير والمفضل لدى السارد وويليام معا، هو "صومعة البرج"، بيت صغير بالقرب من سور المدينة العتيق. وبالرغم من أن الرواية لم تقدم معطيات وافية من حيث وصف المكان بدقة، إلا أن القارئ بإمكانه أن يلملم شتات صورة المكان ويجمع تفاصيلها المتناثرة في الفصول الأحد عشر المشكلة للرواية.

بدت الصومعة مكانا يجمع ما بين المتناقضات، أو بتعبير أكثر دقة، إن صورة الصومعة مماثلة لصورة ويليام، ظاهرها، ربما يوحي بالسكينة وبالهدوء، بيت صغير في الجزء العتيق من المدينة قد لا يلتفت إليه، وهو ما يماثل الصورة الاجتماعية المثالية الظاهرة على ويليام؛ الهدوء والصمت والخجل واحترام الأعراف الاجتماعية. أما باطن الصومعة وويليام، على حد سواء، فيعج بالحركة وبالجنون وبالقلق وبعدم الاطمئنان. فالصومعة أضحت محرابا للذة وللغريزة، بل هي سدوم وعمورة، مدينتا الخطيئة والرذيلة. مكان يخفي أسرار حياة أخرى لويليام لا يعلم بها إلا أقرب المقربين منه، «حياة جنونية لا تعرف حدوداً، ولا تخضع لقيم أو قوانين»، حسب وصف السارد.

يهرب ويليام من رعب القيود الاجتماعية إلى الصومعة، محرابه الأثير. منذ صغره كان يرفض مجاراة والده وينفر من رحلات الصيد ويأنف من أساليب قتل حيوانات بريئة. بنى عالما خاصا به، قوامه القراءة والفن والمعرفة، وهدفه الغوص في الأعماق المجهولة وعدم الاقتناع بالظواهر. اتخذ ويليام من الصومعة مكانا للنقاشات العلمية وللمناظرات الفكرية، وإلى جانب أنها المكان الأثير للانغماس في اللذة، فقد شهدت لحظات تعذيبه

السادي لإليزابيث، وفي الآن نفسه، شهدت أيضا كيف يكون في غاية الرقة والحنان. بهذا، نجد أن المكان يمد الحدث بصور درامية ومتوترة، بحيث إنه لا يقتصر على وظيفته المعهودة بكونه فضاء تقع فيه الأحداث فحسب، بل يمتد إلى الانصهار مع باقي المكونات الأخرى.

يبرز المقطع السردي موقفا دراميا صعبا يعيشه أحمد، هو تشخيص لألمه الداخلي ولصراعه النفسي الحاد، الانفصام بين نمطين من الحياة كل واحد منهما يختلف كليا عن الآخر. مما جعله يحس انشطارا حادا في ذاته وفي هويته. فهو لا ينتمي إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، هويته منشطرة بين ثقافتين متناقضتين؛ ثقافة مغربية عربية أمازيغية تمتد جذورها العريقة إلى حضارة قائمة على الروح والتدين والعاطفة والتقاليد، وثقافة غربية أوروبية تنزع نحو قيم أخرى مغايرة، قوامها العقل والتفكير والمصالح. تتعرض ذات أحمد إلى أزمة كبرى «تتمثل في جمعها بين ذاتين في جسد واحد، حيث إنها عاشت في سياقين حضاريين متباينين، مما أنتج تنازعا داخليا، جعل حضورها مؤطرا بملابسات فعل الاغتراب بمصاحبته الاستتباعية من توتر وقلق وانقسام وفي بعض الأحيان ضياع، إنها الأزمة الحضارية للذات الشرقية المنفتحة على الغرب في مرحلة مبكرة، ولأن هذه الذات تملك أدواتها الإبداعية فقد رشحت هذه الأزمة من شوائبها الفردية لتجعلها أزمة جمعية يتم تشفيرها عبر دوال رمزية حاضرة في صورة نماذج إنسانية تشتغل علاقتها المتشعبة مع سياقها الأبوي وسياقها الوافدة إليه بوصفها علاقات ترصد مظاهر المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب»[14].

شبه أحمد نفسه بمركب تتقاذفه أمواج الضفتين، فبدا في صورتين متناقضتين؛ صورة مستر هامث، ذلك الشاب الأنيق والذكي والمثقف المنغمس في الحياة الغربية إلى أبعد حدودها. والصديق المقرب من ويليام، الابن المدلل والوحيد للكونتيسة، عاشا طفولتهما معا منذ أن التحق أحمد للعيش في قصر الجبل الكبير، لم يفرقهما سوى موت ويليام، تقاسما كل شيء بما في ذلك حبهما لإليزابيث. وصورة أحمد المورو المغربي والمسلم من الأهالي ومن ذوي الأصول الريفية.

إذا كانت الرواية قد أظهرت ويليام بوجهين متناقضين، الطفل الذي كان يشفق على الحيوانات ويرفض قتلها في رحلات الصيد وتحمل قسوة والده جراء ذلك، والشاب المهذب والخلوق، فهو في الآن نفسه، الشاب الذي يتلذذ بتعذيب الآخرين وإهانتهم، فإن أحمد لا يقل تناقضا، إن لم نقل إنه أكثر إشكالا، فهويته مبعث شك وريبة من الجانبين معا، فمهما

انغمس في الحياة الغربية بكل تفاصيلها، من لباس ومن عادات إلى حدود الانصهار، فإنه يبقى في نظر الآخر متوحشا في ثياب الحضارة. أما الجانب الآخر من أبناء جلدته، فنظرتهم إليه لا تقل سوءا؛ فهو ذلك المرتد عن دينه، والفاقد لأصوله، والمتشبه بالكفار.

هذا الصراع النفسي الحاد الذي عاشه أحمد لازمه على امتداد أحداث الرواية، بل نجده في الفصول الآتية قد ازداد حدة واتخذ منحى تصاعديا، جراء الإحساس بالغربة سواء مع الآخرين أو مع نفسه. تنشطر ذات أحمد مع ذوات أخرى ويتقاسم معها هويتها بتعدد مرجعياتها وتباينها من ثقافة إلى أخرى. فهوية أحمد الغربية هي شتات بين الثقافات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، وهذا واضح حتى في علاقاته العاطفية مع المرأة الغربية، أنابيلا رودريغيز، الصحفية الإسبانية الشهيرة، وإليزابيث، تلك المرأة الوحيدة التي أحبها بقوة جارفة، هي علاقات تشي بانشطار الذات وتمزق أوصالها ليس على المستوى الفكري والثقافي فحسب بل يمتد ذلك إلى مستوى آخر أعمق وأخطر، إلى ما هو وجداني وروحي. كما نجد أن هوية أحمد المغربية تعرف بدورها انشطارا، فهو يعشق كثيرا مجالسة أهاليه من المسلمين ويشاركهم أطراف الحديث، في مقهى السي الهادي الواقعة في السوق الكبير أو في غيرها، وينتشي أيضا بشرب الشاي المنعنع، ويسعى جاهدا إلى تقديم المعونة للأهالي، والتدخل لدى السلطات الأجنبية لصالح أحدهم (ابن أخت السي الهادي صاحب المقهى)، والمساعدة في إيجاد العمل (محمد الصبي الريفي). إلا أن هذا الانتماء لم يكتمل، فنظرات الأهالي إليه فيها كثير من الشك ومن الريبة بل ومن الرفض أيضا، فهو الرومي الذي يحب الشاي المغربي والبيصارة، كما نعته الريفيان في مقهى السي الهادي، وهو النصراني الذي يلبس زيا أجنبيا.

إن انشطار ذات أحمد بتعدد الانتماء جعله يعيش في اضطراب دائم، يطرح أسئلة قلقة عن هويته وعن أصله وعن مصيره وعن جدوى هذا التمزق بين ثقافات مختلفة. يقول في مناجاة مع نفسه:

«لكن ما بالك الآن تطرح السؤال...ما الذي جد؟ ألم تكن تعرف أصلك؟ ألم يكونوا يعرفون أصلك؟

والدك، قبلك، كان يعيش هنا. عاشر اليهود والإسبان والفرنسيين والإنجليز والأمريكان. كل زبناء ورشة الميكانيك منهم. قدروه لكفاءته، والكثير منهم لا يزال يتذكره ويثني عليه. بل منهم من صاحبه أو صادقه. لكن أباك كان يقف على أرض صلبة، ثابتة، تغوص فيها جذوره فتمده بالإيمان والطمأنينة. عندما بلغه خبر اشتعال حرب التحرير في

الريف، لم يتردد، خندقه واضح، والسبيل واضح لا عوج فيه ولا مسارب ولا سراب! أجمع أمره، وودع شريكه، وانطلق إلى جبهة القتال. معالم واضحة. لا مجال للحيرة أو السؤال. وكنت تخال نفسك تسير على نهجه وتقتفي خطاه. حفظت وصيته لك وهو يحتضر، مطمئنا إلى مصيره، قلقا على مصيرك. رضيت عن نفسك إذ رعيت الوصية ولم تزغ عنها، على الرغم من الإغراءات وأشواك الطريق. لكن يقينك اليوم يتذبذب، والشك ينخر أساس كل شيء. أتكون لزمت الشكل وغفلت الجوهر؟... وما الجوهر؟ لو عرفته لنجوت! وفي أعماقك يتلجلج صوت الساخر الأبدي ويليام: إنما الجوهر ما تصنعه أنت، فلا تتعلل بالأوهام وأوهى الخيوط!»[15].

تنزع الصورة نحو سمة تكوينية في الرواية هي البوح؛ إذ تبدو نفسية أحمد منكسرة، تتقاذفه أفكار وتأملات عن مصيره وعن هويته، يقارن بين حاله وحال والده، وتجسد هذه المقارنة وضعا قاسيا يمر به أحمد. بدا في صورة الضعف والوهن والشك والحيرة؛ اضطراب نفسي حاد وقلق فكري مستمر، يقف على أرض هشة، تتنازعه أصول متباينة وثقافات مختلفة. بينما الأب بدا في صورة القوة والثبات والاطمئنان والإيمان. كلاهما عاشر الآخر، ذلك الأجنبي، بيد أن كلا منهما سلك طريقا مختلفا.

انغمس أحمد في حياة الآخر إلى درجة التماهي والذوبان، وحتى اسمه تغير فأضحى مستر هامث، الرجل المقرب من الكونتيسة الذي يدير أعمالها ويسعى الجميع لاسترضائه وللظفر بمعرفته، فقد بنى عالما مثاليا قوامه المال والنفوذ والوضع الاجتماعي الراقي وعلاقات متشعبة مع سياسيين ومثقفين ورجال أعمال في مدينة طنجة النابضة بالحياة نهارا وليلا. لكن أحمد لم يطمئن قط لوضعه؛ لأن جزءاً من كيانه يجذبه نحو أصوله المغربية الريفية والمسلمة.

بقدر ما تبدي الصورة الروائية وضعا مضطربا ومعقدا آل إليه أحمد، فإنها في الآن نفسه، تظهر بداية تلمس طريقه نحو التوازن والاطمئنان، فهو يطرح أسئلة بأبعاد وجودية خلخلت عالمه الذي بناه، يقارن بين ضعفه وبين قوة والده، يسعى جاهدا إلى الإجابة عن سؤال هويته الممزقة بين مشارب ثقافية متعددة، إذ حاول مرارا في حواراته مع ويليام وإليزابيث وأنابيل أن يهتدي إلى الصواب ويصل إلى بر الأمان، كما ظن أنه حافظ على وصية والده، أو حقق ما لم يستطع أحد تحقيقه؛ الجمع بين الشرق والغرب. لكنه اكتشف أنه كان واهما في تحقيق تلك المعادلة الصعبة، فبقي بين منزلتين، يحن إلى جذوره الريفية

والمسلمة، وفي الوقت ذاته، يعشق حياة الغرب برفاهيتها وبتحررها. إذا، هو في حاجة ماسة إلى من يرشده إلى الصواب، أو إلى حدث قوي يرج كيانه ويعيد إليه توازنه النفسي المفقود.

3. البحث عن التوازن في رواية "جنة الأرض"

إذا تأملنا السياق النصي للمقطع الروائي، المذكور سابقا، نلفيه في الفصل ما قبل الأخير من الرواية، الذي وسم بعنوان "دار البارود"، وبالنظر إلى الأحداث الواردة في الفصل نجد تساندا بينها وبين العنوان. بمعنى أن كاتب الرواية كان موفقا في اختيار عناوين الفصول. فدار البارود أحد الأحياء العتيقة بمدينة طنجة، ارتبط تاريخيا بالدفاع عن المدينة وصد الهجمات الوافدة من جهة البحر، أما روائيا فنلفي أن هذا الحي لم يحد عن تلك الوظيفة التاريخية، إذ جعله الروائي عنوانا جامعا لأحداث الفصل الذي يتضمن وقائع غيرت حياة أحمد كما غيرت تاريخ طنجة، وقائع لها صلة بانتفاضة الأهالي ضد قوى الاحتلال وبداية مرحلة جديدة ليس بالنسبة إلى أحمد فحسب بل إلى المدينة أيضا. إذن، ثمة توافق بين صورة أحمد وبين صورة مدينة طنجة. فأحمد هو روح طنجة ورسالتها، اجتمع فيه الشرق والغرب وامتزجا في بوتقة واحدة، بحسب تعبير أنابيلا. ثقافة أحمد المنفتحة مكنته من التعايش مع مختلف الجنسيات، ومدينة طنجة أيضا احتضنت كل الثقافات والحضارات؛ العربية والأمازيغية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية والأمريكية وغيرها.

بدا أحمد في مواضع كثيرة من الرواية مقبلا على الحياة ومستمتعا بها ومنغمسا في اقتناص ملذاتها، وهو نفسه، أحمد المضطرب والحائر والباحث عن هويته. أما طنجة فهي مدينة التعايش والسلام والأمن، جنة رجال الأعمال والسياسيين والمثقفين من كل الجنسيات، وهي نفسها المدينة التي يعاني فيها أهلها من شظف العيش والفقر والظلم، وقبلة للمهاجرين وللمضطهدين وللعملاء، ومكان للدسائس والمؤامرات.

تصل معاناة أحمد في هذا الفصل إلى ذروتها، فهو لم يعد يصارع نفسه فحسب بل يصارع الآخر أيضا، لأن نتائج حواره بشأن هويته مع غيره لم يستخلص منها سوى المزيد من الحيرة ومن الاضطراب، إذ لم يستطع الاهتداء إلى الطريق فيعيد التوازن إلى نفسه القلقة.

تكاد الأحداث في هذا الفصل تصل إلى نهايتها، لتبدأ العقدة في الانفكاك والحل. فالبوح بأبعاده النفسية والذاتية الذي هيمن على هذه الصورة وعلى صور أخرى، يمكن القول إنه لازم أحمد واقترن به. بتعبير آخر، اتخذ أحمد من البوح متنفسا لصراعه الداخلي

والخارجي أيضا. وهذا البوح لا يتجلى فحسب في مناجاة أحمد لنفسه أو في حواراته الداخلية، بل نجد له تجليا حتى في حواراته مع شخصيات أخرى، بحيث كان يخفف عن نفسه آلامها ومعاناتها بنقاشه مع ويليام ومع إليزابيث.

بدأت معالم التوازن النفسي الذي سيصل إليه أحمد في نهاية الرواية، مع حدث قوي غير حياته وأثر في مصيره، يتجلى ذلك الحدث في انتفاضة أهالي المدينة ضد قوى الاستعمار وخوضهم حربا تحريرية. في بداية أمره كان أحمد حائرا في أي جهة سيصطف، لم يكن مثل والده الذي لم يتردد بتاتا في اتخاذ القرار بالانضمام إلى المقاومة المسلحة إبان ثورة محمد عبد الكريم الخطابي، بل إن تردده كاد أن يودي بحياته حينما وقف جامدا وصامتا أمام حشود من الأهالي الغاضبة التي ظنت أنه أحد الأجانب بلباسه الغربي، فلم ينقذه سوى السي الهادي صاحب مقهى السوق الكبير الذي كشف لهم هويته بأنه أحمد الريفي ابن بلدكم. في خضم تلك الفترة العويصة التي مر بها أحمد دار نقاش مع أصدقائه الأجانب في إحدى المقاهي من أجل فهم ما الذي يجري، فانبرى أنطونيو إلى سب المغاربة واحتقارهم. فكان ذلك هو الحدث الذي حرر أحمد وخلصه كليا من تبعات اسم مستر هامث، وكأنه بُعث من جديد، فعرف طريقه نحو التوازن والثبات.

اتخذ الفصل الأخير من الرواية عنوانا مثيرا ومختلفا عن عناوين الفصول السابقة، كما أن حجمه وعدد صفحاته أقل بكثير من الفصول الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، نجد السارد قد تغير أيضا فهو حفيد أحمد الريفي. في هذا الفصل أعلن الروائي على لسان السارد عن مصدر حكاية أحمد الريفي، هي مذكرات وجدها الحفيد داخل دولاب كبير في بيت الصومعة، ومن خلال السارد نفسه، يتعرف القارئ على مصير بطل الرواية، أحمد الريفي، الذي عاد إلى قريته بني حذيفة في جبال الريف شمال المغرب، فتخلى عن الحياة الغربية تماما وأقبل على حياة أخرى قوامها التشبث بالأصل وبالجذور، أخيرا وجد ذاته ونفسه، اشترى أراضي اعتنى بها وأعاد الحياة إليها، تزوج وأنجب، فاكتشف معنى جديدا للحياة، لم يتخل عن العلم وعن المعرفة، فانبرى إلى تعليم الصغار في مسجد بناه من ماله.

إذا، هي هوية أحمد القائمة على العودة إلى الأصول، والتشبث بالأرض، واتخاذ العلم والمعرفة مطية لبناء الإنسان وعمارة الأرض، لكن الروائي شاء لأحمد نهاية أخرى بعد أن بلغ رسالته، فيد الظلم طالته واغتالت أحلامه، قتل غيلة بعد أن تحدى قوى ظالمة عاثت في قريته قتلا واغتصابا إبان انتفاضة الريف بعد سنوات قليلة مرت على استقلال البلد. هي

نهاية مؤلمة وحزينة، لأن اغتيال أحمد إنما هو اغتيال للأمل في غد أفضل، بل هو وأد للحاضر وللمستقبل معا في مهدهما، فبعد أن اهتدى أحمد إلى هويته وعرف رسالته في الحياة، امتدت إليه أياد آثمة أبت إلا أن تضع حدا للهوية وللرسالة معا.

خاتمة

هذه بعض الاستنتاجات النقدية لسؤال الهوية في رواية "جنة الأرض" للكاتب المغربي مصطفى الورياغلي، نوردها كالآتي:

- اتضح أن إشكال الهوية ينطوي على قدر غير يسير من الالتباس النابع أساسا من تشعب دلالات الهوية وصلتها بمفاهيم لا تقل التباسا هي الأخرى؛ من قبيل الذات والأنا والآخر والفرد والجماعة والذاكرة والتمثل وغيرها. بيد أننا حاولنا، قدر الإمكان، ملامسة تمثلات الهوية بناء على سياقاتها التخييلية دون إسقاط مسبق.
- استند الروائي مصطفى الورياغلي إلى الذاكرة التاريخية لمدينة طنجة عن طريق سرد أحداث واقعية بأمكنة واقعية هي أيضا، بيد أن رهانه لا يقف عند هذا المستوى الضيق بل يمتد إلى أفق أكثر رحابة، يتمثل في مساءلة مصير الإنسان وكيف يدبر اختلافاته ونزاعاته دون إقصاء للآخر أو سلب لوجوده، وكيف يحافظ على هويته، وفي الآن نفسه، يصبو نحو المستقبل بخطى ثابتة وقوية.
- عرض الروائي في عمله الإبداعي إشكالات إنسانية تستعصي الإجابة عنها أو الحسم فيها، إشكالات يصل صداها إلى وقتنا الراهن، منها: سؤال الهوية، وصراع الثقافات، وصورة الذات عند الآخر، ومبدأ التعايش، وقبول الاختلاف.
- آثر الكاتب في رصده انشطار هوية أحمد/مستر هامث الاعتماد على تقنية البوح النفسي والتداعي؛ حيث بدا بطل الرواية في مواضع كثيرة يسائل نفسه، ويحاول جاهدا البحث عن إجابات لأسئلة مقلقة عن هويته الممزقة بين انتماءات متعددة. دون التغاضي أيضا، عن أهمية الحوار الذي أسهم بدوره في تقريب صورة انشطار أحمد وقلقه الوجودي.
- بدت هوية أحمد منشطرة بين ثقافتين متناقضتين: ثقافة مغربية عربية وأمازيغية تمتد جذورها إلى حضارة عريقة قائمة على الروح والتدين والعاطفة والتقاليد، وثقافة غربية أوروبية تنزع نحو قيم أخرى مغايرة، قوامها العقل والتفكير والمصالح. وتبعا لذلك، عاش أحمد صراعا نفسيا حادا، تجلى في قلقه وتوتره وحيرته.

● عمل أحمد على استعادة توازنه بالمقارنة بينه وبين والده، فسعى نحو الاقتداء بالأب الريفي، الذي قدمته الرواية بوصفه نموذجا في التشبث بالهوية الأصيلة. فعاد إلى قريته بعد أن تخلى تماما عن الحياة الغربية، واعتنى بأرض أجداده وتفرغ إلى تعليم أبنائه.

● بدا المكان في رواية "جنة الأرض" فضاء حيويا بواقعية أحداثه وبامتداداته التاريخية، بيد أن هذه الحيوية لا تقف عند حدود سرد الوقائع فحسب، بل نلفي الروائي يضفي على الأمكنة أبعادا تخييلية أسهمت في تطور الحدث ونموه، من جهة أولى، ومن جهة ثانية، لمسنا أثناء تحليل بعض الصور الروائية تماهي المكان مع شخصيات الرواية. فمدينة طنجة بثقافاتها المتعددة هي امتداد لأحمد، بينما الصومعة بتناقضاتها هي صورة لوليام.

مراجع البحث وإحالاته:

1أحمد فرشوخ، "تشييد الرواية"، مجلة سرود، مختبر السرديات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، العدد 1 ربيع 2018م، ص 19.

2باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القاهر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م، ص 291.

3المرجع نفسه، ص 291.

4نفسه، ص 292.

5عبد الرحيم جيران، "تمثيل الهوية والذاكرة في «والد وما ولد» للمغربي أحمد التوفيق"، جريدة القدس، 21 ماي 2015.

6 حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012م، ص 9.

7المرجع نفسه، ص 10.

8عبد الله أبو هيف، "صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربية"، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثالث. الرابع، 2008م، ص 110.

9الهوية، مرجع مذكور، ص 11.

10جنة الأرض، مصطفى الورياغلي، منشورات العبارة، مطبعة الأمنية، الرباط، 2013م.

11عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، منشورات مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى 2016م، الجزء 5، ص 172.

12 أمارتيا صن، الهوية والعنف. وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 352، يويو 2008م، ص 11.

13جنة الأرض، مصدر مذكور، ص 58.

14علاء عبد المنعم إبراهيم، "نسق اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب في رواية "واحة الغروب" لبهاء طاهر"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 3، المجلد 41، يناير .مارس 2013م، صص 171 .172.

15جنة الأرض، مصدر مذكور، ص 197.

المصادروالمراجع

1.المصدر

ـ مصطفى الورياغلي، جنة الأرض، منشورات العبارة، مطبعة الأمنية، الرباط، 2013م.

2.المراجع

ـ أحمد فرشوخ، "تشييد الرواية"، مجلة سرود، مختبر السرديات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، العدد 1 ربيع 2018م.

ـ أمارتيا صن، الهوية والعنف. وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 352، يونيو 2008م.

ـ باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القاهر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م.

ـ حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012م.

ـ عبد الرحيم جيران، "تمثيل الهوية والذاكرة في «والد وما ولد» للمغربي أحمد التوفيق"، جريدة القدس، 21 ماي 2015.

ـ عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، منشورات مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى 2016م، الجزء 5.

ـ عبد الله أبو هيف، "صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربية"، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثالث/الرابع، 2008م.

ـ علاء عبد المنعم إبراهيم، "نسق اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب في رواية "واحة الغروب" لبهاء طاهر"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 3، المجلد 41، يناير. مارس 2013م.